الرَّدُّ على مَن قال

بِأفضلِيَّةِ بني إسرائيل

على العرب

تأليف السُّلطان الشَّرِيف

أبو الرَّبيع سُليمان بن محمَّد العلوِي

ت 1238 هـ/ 1817 م



الرد على من قال

بأفضلية بني إسرائيل

على العرب

تأليف السلطان العلوي الشريف

أبي الربيع سليمان بن محمد بن عبد الله[1] بن إسماعيل

رحمه الله

(ت 1638هـ)

دراسة وتحقيق

عبد المجيد خيالي

خريج دار الحديث الحسنية بالرباط

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

هذا التقييد للعلامة السلطان مولاي سليمان بن مولانا محمد بن مولانا عبد الله بن مولانا إسماعيل العلوي الحسني رَحِمَهُ اللَّهُ في:

الرد على من قال بأفضلية بني إسرائيل على العرب.

نحمد الله الذي وَسِعَنا كَرَمُهُ، ونشكر الله الذي غمرتنا نعمه، ونصلي ونسلم على نبيه الذي هو أشرفُ الخلق وأكرمُهُ وعلى آله الذين لهم من الشرف بالقرب معظمه، وصحابته الذين بهم علا الدين وأرتبهم علمه. هذا وإن ما قيده سيدنا فخر السلاطين وبحر العلوم، ومعدن حقائق الأنظار وحقائق الفهوم مولانا سليمان بن مولانا محمد لا زالت مآثره تُؤْثَرُ وتُحْمَد على آية: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[1]، وما في معناها هو أمثل ما يحل إشكال معارضها لما علم من أفضلية الأمة المحمدية على سائر الأمم حسبما أفصحت به آية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾[2]، وآية: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[3]، سواء كان الخطاب عاما للأمة، أو خاصا بالصحابة لعموم المفضل عليه، وهو أمة أخرجت للناس، فإن قلت من أين جاء العموم وهو نكرة في سياق الإثبات على حد جاءني رجل؟ قلت جاءه إما من تقدير كُلّ أي: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾[4]. على حَدِّ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾[5]. أي كُلُّ نفس. وإما من قيام النكرة المفردة مقام المعرفة

1 [البقرة: 47]
2 [فاطر: 32]
3 [آل عمران: 110]
4 [آل عمران: 110]
5 [التكوير: 14]

المجموعة كأنه قيل: كنتم خير الأمم المخرَجَة للناس، إذا فُضِّلُوا أمة أمة، فاختصر الكلام كما في التصريح، وبيان المعارضة أن قوله لِبَنِي إسرائيل: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[6]. وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[7]. وقوله: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[8]. يقتضي عموم المفضول عليهم فيما تفضيلهم على هذه الأمة، والآيتان السابقتان يقتضي عموم المفضول المفضل عليه فيما تفضيل هذه الأمة عليهم وعلى غيرهم. والفاضل لا يكون مفضولا لمن فَضَلَهُ فوجب المصير إلى تخصيص أحد العمدين دفعا للتعارض وكلا العمدين قابل في نفسه أن يُخَصَّ بغير المفضل الآخر، لكن الأدلة من خارج تدل على أن التخصيص في عموم من فضل عليهم بنو إسرائيل، بأن يخصّ العالمون بغير هذه الأمة لإجماع المسلمين على أفضلية هذه الأمة على سائر الأمم عمومًا والآية: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[9]. أي عُدُولاً خيارًا لتكونوا شهداء على الناس، ولما في حديث الصحيحين وغيرهما من أن أهل الكتابين أقلّ أجْرًا من هذه الأمة، وإن كانوا أكثر عملا لهم، لهم قيراط قيراط ولهذه الأمة قيراطان قيراطان مع أنهم أقلُّ عملاً. ولما روى أبو نعيم و غَيْرُهُ عن ابن عباس رضي الله عنه رفعه أن الله لما قرب موسى عليه السلام نجيا قال يا رب: هل أحد أكرم عليك مني قرّبتني نجيًّا وكلّمتني تكليمًا؟ قال: نعم محمد أكرمُ منك. قال: فإن كان محمدٌ أكرمَ عليك منّي، فهل أُمَّة محمد أكرم عليك من بني إسرائيل فَلَقْتَ لَهُمُ البَحْرَ، وأنجيتهم من

6 [البقرة: 47]
7 [الجاثية: 16]
8 [الدخان: 32]
9 [البقرة: 143]

فرعون وملئه وأطعمتهم المن والسلوى؟ قال: نعم، أمة محمد أكرمُ عليَّ من بني إسرائيل. قال: إلهي أرينيهم. قال: إنك لن تراهم، وإن شئت أسمعتك أصواتهم، قال: نعم إلهي، فنادى ربنا يا آمة محمد، أجيبوا ربكم فأجابوا في أصلاب آبائهم، وأرحام أُمَّهاتهم إلى يوم القيامة، فقالوا: لبَّيك أنت ربّنا حقًّا ونحن عبيدك حقًّا. قال: صدقتم، الحديث. وفي آخره أنه نزل في ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾[10].

وفي حديث أبي هريرة وأنس رضي الله عنهما عند أبي نعيم وغيره مرفوعا أن موسى عليه السلام لما علم أفضلية هذه الأمة على بني إسرائيل قال: يا رب اجعلني نبي تلك الأمة. قال: نبيها منها، قال: يا رب اجعلني من أمة ذلك النبي. قال: استقدمت واستأخر، ولكن سأجمع بينك وبينه في دار الجلال، وأعطي عند ذلك خصلتين، فقيل له: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[11]. وطلبه أن يجعله من هذه الأمة على جهة التمني[12]. كقول أمرئ القيس[13]:

ألا أيهـا الليـل الطويـل ألا انْجَلِـي   يصـبح ومـا الإصـباح منـك بِأَمْثَـلِ[14]

---

10 [القصص: 46]

11 [الأعراف: 144]

12 ورد الكتاب في كتاب السنة لابن أبي عاصم: 306/1 وقال: إسناده ضعيف جدا بل موضوع ولوائح الوضع عليه ظاهرة، وآفته أبو أيوب الجنائزي واسمه سليمان بن سلمة الحمصي قال أبو حاتم متروك لا يشتغل به وقال ابن الجنيد كان يكذب.

13 ولد في نجد نحو 500 م وعاش في اللهو والصيد ونظم الشعر فطرده أبوه. توفي سنة 540 م ترجم له في: معجم الشعراء للإمام المرزباني ص: 9، شرح القصائد السبع الطوال للأنباري ص: 3-112، الشعر والشعراء لابن قتيبة ص: 50-75.

14 انظر البيت وشرحه في كتاب القصائد السبع للأنباري ص: 77.

ولذلك قال العلاّمة ابن زكري من قصيدة:

تمـــــنى المرســــــلون لأن يكونـــــوا	مــــــن أمتـــــه ليــــزدادوا اقترابـــــا
لقـــــد فزنـــــا بتخصــــيص عظــــيم	لأن حُزنـــــــا لملّتــــــــه انتســــــابا
فكونـــــوا عــــــارفين بمـــــا مُنِحْـــتُمْ	ووالـــــــوا الشــــــكر لله احتســــــابا

ولأنهم أُعطوا أفضل الكتب وجعلوا أتباعًا لأفضل الرسل وأعطوا ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾[15]، وإنهم لا يجتمعون على ضلالة[16] وإن إجماعهم حجة واختلافهم رحمة،[17] وكان اختلاف من قَبْلَهُمْ عذابًا، وإنهم جُعِلُوا آخر الأُمم، لِئَلاَّ يَطَّلِعَ غَيْرُهُمْ على مَسَاوِئِهِم، وإنهم أول مَن يدخل الجنة من الأمم، إلى غير ذلك من خصائصهم.

وحاصل كلام مولانا الإمام أمران أحدهما أن تفضيل بني إسرائيل في الآي السابقة، إنما هو باعتبار مَن سَبَقَهُم من الأمم، أو عاصرهم مَن ليس منهم لا باعتبار من بعدهم فلا تَرِدُ هذِهِ الأمة المحمدية كما أن تفضيل هذه الأمة هو أيضا بالنسبة إلى من سبقها من الأمم، ولما كانت آخر الأمم لزم من تفضيلها على من سبقها تفضيلها على سائر الأمم إذ لا أمة بعدها، حتى تكون فاضلة، أو مفضولة وهذا الذي قاله في تلك الآي هو أمثل ما يقال، وأحق ما يدفع به الإشكال وهو إما تخصيص للفظ العالمين، أو تنبيه على أنه ليس في الحقيقة زائد على ما يتبادر

---

15 [القدر: 3]

16 عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: ((لن يجمع الله أمتي على ضلالة أبدًا ويد الله على الجماعة)) أخرجه الحاكم في مستدركه حديث (394). 200/1 دار الكتب العلمية ط I س 1990.

17 أخرجه أبو نعيم في كتاب حلية الأولياء قال أبو يزيد: عملت في المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئًا أشدّ على من العلم ومتابعته. ولولا اختلاف العلماء لتعبت، واختلاف العلماء رحمة إلا في تجريد التوحيد، الحلية: 36/10، وصفة الصفوة: 107/4،108.

منه، فلا حاجة إلى اعتبار التخصيص، فإن معنى ﴿فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[18] جعلت آباءكم، أو أسلافكم يفضلون أو فاضلين سائر العالمين ولا شك أنهم إنما يتصفون بذلك وقت تلبسهم بشريعتهم وعندما كانت معتبرة قائما حكمها قبل النسخ. واسم الفاعل، وكذا المضارع حقيقة في حال التلبس بالمعنى وإن لم يكن هو حال التكلم على ما حققه التاج ابن السبكي[19] وإذا ثبت لهم الفضل على العالمين في ذلك الوقت اختص لفظة العالمين بمن تحقق لهم وجود إذ ذاك دون الباقين في العدم، إذ الباقون في العدم وهم هذه الأمة ليسوا من العالمين في ذلك الوقت بالفعل، بل بالقوة فقط فلا يتناولهم لفظ العالمين بالقياس إلى ذلك الوقت الذي هو وقت قيام شريعتهم، قبل نسخها، وإذا عُلِمَ هذا فمن آمن بعيسى من بني إسرائيل استمر تفضيله، و مَن كفر به بطلت فضيلته، و من آمَنَ بِنَبِيِّنَا من اليهود المكذِّبين بعيسى انتقل من عدم الفضل بالكلية، إلى أفضل مما ثبت إسلامه من الفضيلة، و من كذب به بعد تكذيبه بعيسى استمر على عدم الفضيلة بالكلية. ولهذا قُدِّرَ المضاف في قوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾[20] أي فضلت آباءكم وأسلافكم، إذ الخطاب للكفار منهم. ولا يجب مثل ذلك في قوله: ﴿الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾[21] لأن النعم في الظاهر سابقة عليهم، وعلى آبائهم، فيمكن أن يزكوا ما هم فيه من النعم وقت النزول، ويعم الخطاب الموجودين، وآباءهم على التغليب ويمكن أن لا يقدر المضاف

---

18 [البقرة: 47]

19 تاج الدين قاضي القضاة أبو النصر عبد الوهاب بن تقي الدين علي بن عبد الكافي بن تمام الأنصاري السبكي الشافعي صاحب التصانيف الكثيرة، توفي سنة 771 هـ/1369 م. ترجم له في الرسالة المستطرفة ص: 140، البدر الطالع بمحاسن القرن السابع للشوكاني: 410/1-411، الفكر السامي للحجوي 411/2، 412 المجلد الثاني دار الكتب العلمية الطبعة الأولى 1992، الدرر الكامنة: 39/3.

20 [البقرة: 47]

21 [البقرة: 40]

في: (وأني فضلتكم)، ويكون التفضيل واقعا على المجموع من حيث هو مجموع، فيصرف إلى ما يليق به ويقتضي الحكم على كل بَعْضٍ بَعْض كما تقرر في موضعه. وقد قال قتادة [22] ﷺ: ذكر لنا أن عمر بن الخطاب[23] ﷺ كان يقول: قد قضى الله بني إسرائيل، وإنما يعني بما تسمعون غيركم، فإنهم المعنيون بنحو: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[24]. وقد أشار النيسابوري[25] في تفسيره للآية إلى ثلاثة أجوبة على المعارضة، وهي تخصيص لفظ العالمين بغير هذه الأمة، بأن يراد بها الكثير من الناس لا الجميع، أو تخصيص لفظ العالمين بعالمي زمانهم أو تخصيص التفضيل ببعض الوجوه دون بعض مع بقاء لفظ العالمين على الشمول للموحدين ومن بعدهم، ونص كلامه: والمراد بالعالمين ههنا الحجم المفيد من الناس، كقوله: ﴿الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾[26]. ويقال: رأيت علما من الناس يرى الكثرة بقرينة العلم، بأنه لم ير كل الناس، ويمكن أن يكون المراد: فضلتكم على عالمي زمانكم، لأن الشخص الذي سيوجد بعد ذلك، لا يكون من العالمين، ويحتمل أن يكون لفظ العالمين عاما للموجودين، ولمن سيوجد لكنه مطلق في الفضل، والمطلق

---

22 هو قتادة بن النعمان بن يزيد بن عامر شهد العقبة وبدرًا وما بعدها فقئت عينه يوم أحد فردها النبي ﷺ بيده الكريمة، خرج له البخاري حديثا واحدا توفي سنة 25 هـ عن 65 سنة بالمدينة وصلى عليه عمر بن الخطاب. ترجم له فيه: الاستيعاب لابن عبد البر: 1274/3، أسد الغابة لابن الأثير 89/4-91، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر: 229/5-230.

23 عمر بن الخطاب بن عبد العزى كنّاه رسول الله ﷺ أبا حفص وسمّاه الفاروق. له مناقب عدة توفي سنة 23 هـ ترجم له في الاستيعاب: 1144/3-1159، أسد الغابة 642/3-678، الإصابة: 279/4.

24 [البقرة: 47]

25 اسمه الكامل: نظام الدين بن الحسن بن محمد بن الحسين الخرساني النيسابوري المعروف بالنظّام الأعرج كان من علماء رأس المائة التاسعة على قرب من درجة ابن حجر العسقلاني. أما تفسيره اسمه: غرائب القرآن ورغائب الفرقان وهو مختصر من التفسير الكبير للفخر الرازي وضم إلى ذلك بعض ما جاء في الكشاف للزمخشري.

26 [الأنبياء: 71]

كفى في صدقه صورة واحدة، فالآية تدل على أنهم فضلوا على كل العالمين في أمر ما، وهذا لا يقتضي أن يكونوا أفضل من كل العالمين في كل الأمور، فلعل غيرهم يكونون أفضل منهم في أكثر منها. وقيل: الخِطَابُ لمؤمني بني إسرائيل لا عُصَاتُهُمْ مُسِخُوا قِرَدَة وخنازير بلفظة. وما فضلوا به من بعض الوجوه، أن جميع الأنبياء وهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا منهم، إلا عَشَرَة على ما ورد عن ابن عباس، وقيل غيرُ ذلك، وبَقِيَ هُنا حجّتان؛ أحدهما أن أفضلية أمة موسى بالنسبة لغير أمة المصطفى، وأفضلية أمة المصطفى على أمة موسى إنما هما من حيث الانتساب إلى رَسُولَيْهِمَا عليهما السلام، لا من حيث العمل وَكَمِّيَّتِهِ فلا يمنع أن يفضل بعض أفراد آمة موسى، أو عيسى عليهما السلام بعض أفراد هذه الأمة في العمل فقد يَعْرِضُ للمُعَدَّى ما يجعله مساويًا، أو مماثلًا، فإذا قِيسَ من ليس له عمل صالح من هذه الأمة إلى التقي الذي له أعمال صالحة من أهل الْكِتَابَيْن، فَمَن مات على التديُّن بشريعتهم وَقْتَ اعتبارها فلا إشكال أنه يكون أفضلُ. ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[27]، وهو خطاب للناس معلنًا بدليل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ﴾[28] إلى آخره. وأما من له عمل صالح من هذه الأمة، وأمة موسى، أو عيسى، فبأن نفرض أنه وجد للمحمدي مائة حسنة، فضوعفت بعشر عشر فصارت ألفا. ووجد لواحد لأهل الكتابين ألف حسنة، فضوعفت بأربع أربع مثلًا فصارت أربعة آلاف، وهي أكثر من الألف، وإنما لم نجعل التضعيف لهم بخمس خمس، مع أن لهم قيراطًا قيراطًا

27 [الحجرات: 13]
28 [الحجرات: 13]

ولهذه الأمة قيراطان[29]، حتى يكون أجر قيراطي الكتابي مثل نصفي أجر المحمدي، لأن الكتابي في الحديث فرض أكثر عملا من المحمدي، ومع ذلك لم يزد على القيراط الواحد فدل ذلك على أن أجره أقل من نصف أجر المحمدي في الجملة والله أعلم.

فالحاصل في النسب الديني مُعْتَبَرٌ ومتفاوت في الأفراد بحسب تفاوت المنسوب إليه ألا يغلب المفوق الفائق من غير حيثية النسبة النسب الطيني، إلى من له مَزِيَّةٌ دينية تعتبر شرعا بشرط التقوى العملية، فمقتضى كلام بعضهم أنه لا تأثير لشرف النسب أصلا، لأنه تابع للتقوى يقوى بقوتها ويضعف بضعفها، وينعدم بانعدامها، وقيل: يبقى له أثر قوي كما يأتي في كلام ابن عربي الحاتمي[30]، وقيل يبقى له أثرها كما يأتي في كلام العلامة ابن زكري[31]، وقيل لا أثر له أصلًا ولو مع التقوى، لأن ظاهر الآية، وكثير من الأخبار، أن الكرامة عند الله تعالى، إنما هي بالتقوى لا شرف النسب بحيث وجدا، كانت الكرامة عنده منوطة بها، لأنه بوجوده غير مؤثر في ذلك.

والحق أن له أثرًا على حسب ما يقارنه من التقوى العملية وأنه ترجى بركته في الجملة، وأما قوله ﷺ لفاطمة رضي الله عنها: ((شتري نفسك من الله لا أغنى

---

[29] في الأصل: قيراطين وهو خطأ، والصحيح قيراطان لأنه مبتدأ مؤخر ولا يوجد ما ينصبه.

[30] هو محيي الدين بن عربي الفقيه الظاهري من أعمال مرية بالأندلس. توفي سنة 638 هـ بقرطبة ترجم له في شذرات الذهب: 190/5، النجوم الزاهرة 339/6، الطبقات الكبرى: 188/1.

[31] هو محمد بن عبد الرحمن بن زكري الفاسي المولد والمنشأ توفي سنة 1144 هـ ترجم له في التقاط الدرر ص: 356 -358، الاستقصا: 83/8، سلوة الأنفاس: 158/1 طبعة حجرية، الحياة الأدبية ص: 217-219.

عنك من الله شيئا))[32]. فالمراد أنه لا يُغْني عنها إغناءً محقَّقًا على تقدير عام التقوى، أما معها، كما هو الواقع فله، أي إغناء كيه[33] وقد وصلت بجاه الانتساب إليه إلى أنها سيدة نساء أهل الجنة، وأنه يقال لأهل الموقف: ((غضوا أبصاركم حتى تمر فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم))[34].

وقال القرطبي في تفسيره ما نصّه «والحدّ من التقي أفضل من الفاجر النسيب، فإن كانا تقيين فبه تقدّم النسيب منهما كما يُقَدَّمُ الشيخ على الشاب في الصلاة، إذا استويا في التقوى؛ منه بلفظه. وقال القلشاني[35] على الرسالة: ولا شك أن للشرف في النسب مَزِيَّةٌ تقتضي تقديم صاحبها على غيره، لا يعني في الرتبة المشار إليها في قول المختصر، ثم زائد فِقْهٍ، ثم حَدِيثٍ، ثمَّ عِبَادَةٍ، ثم بسِنِّ إسلام ثم بنَسَب. وقول الزرقاني[36] المراد بتشرّف النساب كون الشخص معروف النسب لا مَجْهُولُهُ خلاف ظاهر كلامهم ويدلّ على أن لشرف النسب أثر في الجملة قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[37]. وقد أخرج حمّاد بن سلمة عن ابن عباس قال: يرفع الله للمؤمن ذريّته وإن كانوا في العمل دونه، ليقرّ الله عَيْنَهُ. ثم

---

[32] هذه الرواية أوردها القرطبي في تفسيره برواية ابن عباس بلفظ: أقبل نبي الله ﷺ من سرية أو غزاة فدعا فاطمة فقال: يا فاطمة اشتري نفسك من الله فإني لا أغني عنك من الله شيئًا وقال مثل ذلك لنسوته... الحديث: 94/16. وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان برواية أبي هريرة 228/3–حديث (3401).

[33] كيه: هو الذي لا متصرف له ولا حيلة. لسان العرب مادة كيه: 538/13.

[34] ورد الحديث في مجمع الزوائد للهيثمي212/9، والطبراني في المحجم الكبير حديث (180) 108/1 وفيه عبد الحميد بن بحر وهو ضعيف. وأخرجه أيضا في حديث (999) 400/22 من طريق عبد الحميد برواية علي رضي الله عنه.

[35] هو أبو حفص عمر بن محمد القلشاني التونسي توفي سنة 847 هـ. ترجم له في شجرة النور الزكية ص 245، ولقط الفرائد ص: 249.

36 هو: أبو محمد عبد الباقي بن يوسف بن أحمد الزرقاني توفي سنة 1099 هـ. ترجم له في خلاصة الأثر: 287/2، اليواقيت الثمينة: 238/1–239، الفكر السامي: 337/2، شجرة النور الزكية ص: 394.

37 [الطور: 21]

قرأ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾[38] ما تَحَصَّنَّا الآباءُ بما أعطيت الأبناء. وعكس ما في الآية ما رواه ابن مردويه، والضياء مرفوعًا: إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك. فيقول: يا رب قد كملت لي ولهم؟ فيؤمر بالإلحاق[39]. ويدلّ لذلك أيضًا حديث البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قيلَ: يا رسولَ الله من أكرمُ الناس؟ قال: ((أتقاكم))، قالوا: ليس عن هذا نسأل. قال: ((فيوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله، ابن خليل الله)). قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: ((فعن معادن العرب تسألوني؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فَقُهُوا))[40] هـ. قال العلامة ابن زكري بَيَّنَ الشرف أولاً بالأعمال الصالحة، وثانيًا بالنسب الصالح الذي تَعُودُ بركته، وثالثا بأصالة الغرائز الحميدة. وهذا بالنسبة لِمَن أسلم عن أبٍ كافر، أو آباء كفّار موصوفين بتلك الغرائز، وأما مَن أسلم في عهده صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب الذين كانوا على دين صحيح فالسريان من آبائهم المسلمين أَحْرَوِي[41].

فقوله: خيارهم في الجاهلية من التفضيل بالأصالة التي السريان معها أمر أغلبي ومن ورث ليس كمن اكتسب والوارث هو من اتّصف بمثل ما كان لآبائه. وإلا فلا عبرة

---

38 [الطور: 21]

39 أخرجه الطبراني في معجمه الكبير برواية ابن عباس وفيه محمد بن عبد الرحمن ضعيف، حديث (12248) 440/11، والمعجم الصغير حديث (640) 328/1، والفردوس للديلمي حديث (1153) 1/ 293، ومجمع الزوائد: 114/7.

40 أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [سورة النساء، آية: 165]، حديث (3353) و حديث (2283) و حديث(3490) . وأخرجه مسلم في كتاب الفضائل (44) باب فضائل يوسف عليه السلام حديث: (2378)، والنسائي في سننه الكبرى حديث (11249) – 376/6، و مصنّف ابن أبي شيبة حديث (31919) – 347/6، والدارمي في سننه حديث (223) – 84/1.

41 انظر نص ابن زكري في كتابه: السيف الصارم في الرد على المبتدع الظالم ص: 106، 107، مخطوط عدد 939 حرف كاف الخزانة العامة الرباط.

به في هذا القسم الثالث الذي النسبة فيه إلى غيره الصالحين من الجاهلية.

وأما الثاني فالعقوق لا ينفي النسب، وإن كان بين البارّ والعاقّ كما بين السماء والأرض. فليس في القسم الثالث تفضيل بالآباء الجاهليين بل بالخصال الحميدة الأغلب فيها الاقتداء كما قيل:

بِأَبِـهِ اقْتَـدَى عَـدِيّ فِي الكَـرَمْ وَمَـنْ يُشَـابِهْ أَبَـاهُ فَمَـا ظَلَـمْ

وقال آخر:

إِنَّـا وَإِنْ كَرُمَـتْ أَوَائِلُنَـا لَسْـنَا عَلَـى الاحْسَـابِ نَتَّكِـلُ
نَبْـنِي كَمَـا كَانَـتْ أَوَائِلُنَـا تَبْـنِي وَنَفْعَـلُ مِثْـلَ مَـا فَعَلُـوا

انتهى كلام ابن زكرى.

ولابن الرومي[42] في هذا المعنى:

ومـا الحسـب المـوروث لاَ دَرَّ دَرُّهُ بِمُحْتَسِـبٍ إلاَّ بِـآخَرَ مُكْتَسَـب
إذا الغضـى[43] لم يثمـرْ وإن كـان شـجرة مـن المثمـرات اعتـدَّهُ النَّاسُ لِلْحَطَـب

---

42 هو أبو الحسن علي بن العباس بن جريج المعروف بابن الرومي، رومي من ناحية أبيه، فارسي من ناحية أمه، نشأ ببغداد عاكفًا على طلب العلم، مات مسموما سنة 283 هـ/ 896 م. انظر كتاب ابن الرومي (حياته من شعره) لعباس محمود العقاد، الطبعة الثانية، القاهرة السنة 1938، و عبد الر حملن شكري: ابن الرومي الشاعر المصور ص: 243ـ246 طبعة 1939، وشوقي ضيف الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص: 116 – 130 القاهرة 1945.

43 قال الأصمعي إذا بدا الطّلع فهو الغضيض فإذا اخضرّ قيل: خضب النخل ثم هو البلح. لسان العرب لابن منظور مادة غضض: 197/7.

ومما ذكر يتبين أن الاعتماد على النسب مجرَدًا عن التقوى والفخر به حذر وجهل.

ومما ينسب لسيدنا علي[44] رضي الله عنه:

الناس من جهة التمثيل أكفاءُ ... أبوهم آدم والأُم حَوَّاءُ[45]

نفس كنفس و أرواح مشاكلة ... وأعظمٌ خلقت فيهم وأعضاء

فإن يكن لهم من نسلهام حَسَبٌ ... يُفَاخِرُونَ به فالطينُ والماءُ

ما الفضل إلا لأهل العلم إنَّهُمُ ... على الهدى لمن استهدى أدِلَّاءُ

وقدر كل امرئٍ مَا كان يُحسنه ... وللرجال على الأفعال أسماءُ

وضدّ كل امرئٍ ما كان يجهله ... والجاهلون لأهل العلم أعداءُ

وللشيخ أبي حفص الفاسي[46] في معناه:

قل لمن يعلو على الناس بآباء سُرَاتِ ... ليس من شأنِي افتخارٌ بعظامٍ نَاخِرَاتِ

مَا فَخَارُ المرء إلا بعلوم زاخراتِ ... وسجايا ومزايا وهبات وافراتِ

وضِرَابٍ بِنِصَالِ، في مجالِ الحركاتِ ... وَجِفَانٍ كَالجَوَابِ، وقُدُورٍ رَاسِيَاتِ[47]

وقال ابن عربي في الفتوحات: يعتقد في أهل البيت أنَّ الله تجاوز عن جميع سيئاتهم، لا بعمل عَمِلُوه، ولا بصالح قدَّموه بل عناية من الله لهم.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ

---

44 هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم. أسلم وهو ابن ثمان أو عشر سنين، مات رضي الله عنه يوم 17 رمضان سنة 41 هـ. ترجم له في الاستيعاب لابن عبد البر: 3/1089-133. الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر: 4/ 269، صفة الصفوة: 1/130-140.

45 الأبيات من البحر البسيط انظرها في كتاب ديوان الإمام علي جمعه الأستاذ نعيم زرزور ص: 5، 6 دار الكتب العلمية السنة 1996.

46 هو أبو حفص عمر بن عبد الله بن عمر بن يوسف الفاسي توفي سنة 1188 هـ/ 1774 م. ترجم له في الحياة الأدبية في المغرب ص: 306، تاريخ الشعر للنمشي ص: 82.

47 انظر الأبيات الشعرية في النبوغ المغربي لعبد الله كنون: 3/40.

﴿تَطْهِيرًا﴾[48]

وكتب الإمام القصار[49] على هذا الكلام ما نصه: قول القائل يعتقد أن الله لا يعاقبهم إن أراد تغليب الرجاء في حق من علم الله تعالى أنه منهم على الخوف بحق، وإن أراد الاعتقاد الجازم المطابق بأنهم لا يعاقبون فقد ابتدع وخالف السنة، فإن قيل: وردت به ظواهر، قيل: ورد أكثر منها وأوضح في حق فاعلي طاعات حتى قال المبتدعة، المرجئة: لا يعاقب مؤمن وافق أهل السُنَّة، وأعدى الأعادي لأهل البيت من يُوهِمُهُم ذلك يذكر لهم نحو ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾[50] وإن كثيرا من تلك الظواهر قد لا تشملهم، فمن اعتقد ذلك منهم، أو من غيرهم فيهم فهو مبتدع. بل مذهب أهل السُّنَّة أنهم في المشيئة. اهـ.

وكتب على هذا الكلام العلامة العارف أبو زيد الفاسي[51] ما نصُّه: قف على قوله في حق من علم أنه منهم تتنبَّه على أنه لا يقطع به في معين، ولا يقطع به أحد لنفسه ولو كون شرطه الوفاة على الإسلام وهو غيب.

وهكذا ينبغي أن يكون الاعتقاد في كل فضيلة وعد عليها في العقبى بأن يشترط ذلك الإيمان عند الله وهو غيب غير مقطوع به لأحد إلا مَن ميّزه النص على أن

48 [الأحزاب: 33]

49 هو محمد بن قاسم القصار الغرناطي الأصل، الفاسي النشأة والدار، قَدِم أبوه من غرناطة حين استولى عليها العدو الكافر سنة 897 هـ. من كبار علماء المغرب في العصر السعدي كان متخصّصًا في علم الأنساب والرجال ورواة الحديث، توفي سنة 1012 هـ. ترجم له في صفوة مَن انتشر ص: 16-19 طبعة حجرية، التقاط الدرر ص: 39، 40، سلوة الأنفاس: 2/ 63 طبعة حجرية.

50 [الأحزاب: 30]

51 هو: أبو زيد عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي أحد كبار أقطاب الفكر المغربي توفي سنة 1096 هـ/ 1685 م. ترجم له في: التقاط الدرر ص: 231، 232، صفوة من انتشر.1/314 ص: 801. سلوة الأنفاس 314/1.

مَن تحقَّق قَبْضَة الحق لا يسكن لوعد ربّه تفهم قول سيدي عبد السلام[52]: اللهم ألحقني بنسبه، فإن الطيني مشروط بالديني، وهو غيب. وكذا ما ورد في قَبُول الطاعات، والدعاء، وادّخاره فإنما هو فيمن علم الله تعالى منه خاتمة الإيمان ونفذت بذلك إرادته ومشيئته، وأما أحد في خاصّة نفسه، فلا يصح منه الجزم والقطع بذلك لنفسه ولا لغيره.

وقد قال سيدي أبو الحسن الشاذلي[53]: وقد أُبْهِمَتِ الأَمْرُ علينا لِنَرْجو وَنَخَافُ. وذلك سِرُّ العبودية، وبذلك تَنْقَطِعُ الآمالُ إلاّ من الله، ويتحقق الرجاء والاعتماد عليه لا على الأسباب فَاعْرِفْهُ هـ. قال العلامة ابن زكري فيتبين من نصوص هؤلاء الأئمة أنَّ مُحْمَلَ أحاديثِ التبشيرِ على غلبة الرجاء في حق مَن علم الله أنه منهم.

وأما آية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ﴾[54]. فقيل: الإرادة بمعنى الأمر، وقيل: المراد بأهل البيت فيها خصوصًا فاطمة وبعلها وابنيها. وقيل: أزواج النبي ﷺ. وقيل: هما معًا. وتمسك مَن قال: إنه لا عبرة بشرف النسب دون تقوى أصلًا، بحديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا أن الله تعالى يقول يوم القيامة: ((إني جعلت لنفسي نسبا، وجعلتم لأنفسكم نسبا، قلت: ((إن أكرمكم عند الله أتقاكم)) وأبيتم إلا أن تقولوا: فلان ابن فلان، وأنا اليوم أرفع نسبي، وأضع أنسابكم. أين

52 المراد به هو عبد السلام بن مشيش بن مالك بن علي من أكابر الأولياء العارفين بالله راح ضحية مؤامرة مدبرة سنة 622 هـ. انظر عنه جامع كرامات الأولياء: 2/167–168.

53 أبو الحسن الشاذلي ولد بغمارة شمال المغرب. توفي سنة 656 هـ/ 1257 م. تتلمذ على يد عبد السلام بن مشيش الذي كلفه بالدعاية لحركته الصوفية. ترجم له في الطبقات الكبرى للشعراني: 2/4–12، السلوة: 1/ 84، شذرات الذهب: 5/278.

54 [الأحزاب: 33]

المتقون))[55]. وليس فيه تصريح بأن الموضوع النسب إلى الصالحين فيحتمل أن يكون الموضوع النسب إلى أهل المال والوَجَاهَة في الدنيا.

وبحديث الترمذي عن ابن عُمر رضي الله عنه أن المصطفى خطب بمكة فقال: ((يا أيها الناس، إن الله أذهب عنكم عُبِّيَّة[56] الجاهلية وتعاظُمَهَا بآبائها، فالناسُ رجلان: رَجُلٌ بَرٌّ تقي كريم على الله وَفَاجِرٌ هَيِّنٌ على الله، فالناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب))[57]. وليس أيضًا بصريح، فإن قوله: بَرٌّ تَقيٌّ كريم على الله ليس فيه حصر علة كرمه في بِرِّه وتقاه، فيجوز أن يزداد كرمًا بانتسابه إلى صالحين.

وروى الطبراني عن أبي نضرة عن مَنْ شهد خطبة النبي ﷺ بمنى وسط أيام التشريق وهو على بعير فقال: ((أيها الناس، ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، ألا هل بلَّغت))، قالوا: نعم. قال: ((لِيُبْلِغ الشَّاهِدُ الغائِب))[58].

---

55 آخرجه القرطبي في تفسيره: 346/16، والحاكم في مستدركه حديث (3725)، 503/2 وقال: هذا حديث عالٍ غريب الإسناد والمتن ولم يخرّجاه أي البخاري ومسلم، ومجمع الزوائد للهيثمي وقال رواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه طلحة بن عمرو وهو متروك 84/8، والطبراني في المعجم الأوسط حديث (4511)، 388/4. وأخرجه أيضا في المعجم الصغير حديث (642)، 383/1 وقال لا يُروَى عن أبي هريرة إلا بهذا الإسناد. تفرد به صالح، والبيهقي في شعب الإيمان: 289/4، 290، وعبد العظيم المنذري في كتابه الترغيب والترهيب حديث (4495)، 375/3.

56 عُبِّيَّةَ الجاهلية: الكِبْرُ والنخوة، والمراد هو ما كان عليه أهل الجاهلية من التفاخر بالأنساب والتباهي بها. انظر الغريب للخطابي: 290/1، والنهاية في غريب الحديث: 169/3.

57 أخرجه الترمذي في كتاب التفسير (1) باب ومن سورة الحجرات حديث (3281) وقال الترمذي هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث عبد الله بن دينار عن ابن عمر إلا من هذا الوجه. وعبد الله بن جعفر يضعف. ضعفه يحيى بن معين وغيره، وعبد الله بن جعفر هو والد علي بن المديني. والحديث أخرجه أيضا ابن حبان في صحيحه: 137/9، وابن أبي شيبة في مصنفه: 405/7.

58 الحديث أخرجه أحمد في مسنده حديث (23536) 5/ 411 مؤسسة قرطبة مصر – ولم يخرجه الطبراني – وأخرجه أيضا القرطبي في

البحث الثاني: أن تخريجهم آية: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[59]، ونَحْوَها على عالم زَمَانِهِم ليس على إطلاقه فإن مِنْ عالِمِي زمانهم بني إسماعيل. فإذا قِيسَ مَن كان من بني إسماعيل في زمان بني إسرائيل مؤمنًا، غير داخل في ملّة موسى مثلًا، ولكنه على هدي إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام إلى مَن يُسَاوِيهِ في التقوى من بني إسرائيل فإسماعيل أفضل على الصحيح من الأقوال السالفة لأنه أَمَسُّ نسبا بالمصطفى، وذلك معتبر مع التقوى كما مرّ.

ويدلّ له حديث الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنه رفعه: ((ان الله اختار خلقه، فاختار منهم بني آدم، ثم اختار بني آدم فاختار منهم العرب، ثم اختار العرب فاختار منهم قريشًا، ثم اختار قريشًا فاختار منهم بني هاشم، ثم اختار بني هاشم فاختارني، فلم أزل خيارًا من أخيار))[60]. فهذا يدل على أن العرب أفضل من حيث النِّسْبَة إلى إسماعيل، نعم مَن كفر منهم وعبد الأوثان لا فضيلة له ولا يُداني أدنى مؤمن من بني إسرائيل ولا من غيرهم. ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[61]

الأمر الثاني مما في كلام مولانا المؤيد: أن مَن دخل في دين الله فهو من أمته، وإن لم يكن ذلك الرسول مبعوثًا إلى هذا الداخل، كَمن دخل من العرب في اليهودية والنصرانية، كأهل اليمن، وطيّء، وغسان، وأهل نجران وغيرهم، وكان أوله

تفسيره: 16/ 341، 342، وأبو نعيم في الحلية، وقال: غريب من حديث أبي نضرة: 100/3.

59 [البقرة: 122]

60 هذا الحديث أخرجه الحاكم في مستدركه حديث (6996) 97/4 دار الكتب العلمية ط I سنة 1990 وصححه. ولم أجده عند الطبراني سواء في معجمه الكبير أو الأوسط، أو الصغير، والله أعلم.

61 [الحشر: 20]

دخول اليهودية اليمن من زمان تبّع الأصغر كما لابن إسحق ولغيره.

ولذا قال المصطفى لمعاذ لما بعثه إلى اليمن إنك تأتي[62] قوما أَهْلَ كتاب. قال العلامة ابن زكري: واستنبط منه شيخ الإسلام أن كل مَن دانَ بدين أهل الكتاب فهو منهم.

قلت: والظاهر أن من دخل في دين موسى ممَّن لم يبعث إليهم كالعَرب على البقاء عليه بعد نسخه بشرع عيسى عليه السلام، لأن النسخ إنما هو في حق من بُعِثَ إليه عيسى ولم يُبْعَثْ إلى العرب كما بيّناه في شرح حديث القراريط. وأما ما داخل من أصناف بني آدم في دين المصطفى عليه السلام، فلا شُبهَة في أنه من أمته لأنه مبعوث إلى الناس جميعًا بل إلى الثقلين بإجماع. وإلى الملائكة على أحد قولين. حُكِيَ عن كلٍّ منهما الإجماع. والله تعالى أعلم وبه التوفيق والهداية إلى سواء الطريق، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا، والحمد لله رب العالمين.

---

[62] هذا الحديث أخرجه مسلم في صحيحه من كتاب الإيمان (7) باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام حديث (19) برواية ابن عباس رضي الله عنه، والبخاري في صحيحه من كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة حديث (1331) دار ابن كثير، اليمامة بيروت 1987 ط ثالثة، برواية ابن عباس أيضا. وابن خزيمة في صحيحه باب الزجر عن أخذ المصدق خيار المال بذكر خبر مجمل غير مفسر حديث (2275).